كتاب الشهر

رحلة تاريخية نقدية في مسيرة "سفيرتنا الى النجوم"

فيروز... سرّ صوت أدخل الطمأنينة إلى قلوبنا

لعلها المرة الاولى يصدر كتاب يتمحور حول فيروز، جاعلا منها البطلة المطلقة. "فيروز سفيرة المحبة" للباحث زياد جمال حداد، يحاول تتبع سيرة "جارة القمر"، متوقفا عند جوانب محددة من انتاجها الفني مع الاخوين رحباني وابنها زياد

"هذه سفيرتنا الى النجوم" قالها الشاعر العبقري سعيد عقل، فرد عليه عبقري آخر، هو الموسيقار محمد عبد الوهاب بانها "سفيرة النجوم الينا". هي ايضا التي قال عنها الشاعر الراحل انسي الحاج "بعض الاصوات سفينة، بعضها شاطئ، بعضها منارة، وصوت فيروز هو السفينة والشاطئ والمنارة. هو الشعر والموسيقى والصوت، و... الاكبر من الشعر، والموسيقى، والصوت، وحتى الموسيقى تغار منه". كيف الحديث عن فيروز وقد عجز ارباب الشعر والموسيقى عن تحديد هذا الصوت المحمل بالصور والمبلل بالذكريات؟

اعمال كثيرة صدرت على مر السنوات تحاول فهم ظاهرة الاخوين رحباني، بدءا من المؤرخ فواز طرابلسي الى الشاعر هنري زغيب. دراسات وابحاث اكاديمية قاربت تلك الظاهرة التي استحالت وجدان امة كاملة وذاكرتها ومخيلتها مثل "الاخوان رحباني الحياة والمسرح" للمخرج نبيل ابو مراد، و"فيروز والرحابنة" لفواز طرابلسي، و"في الموسيقى العربية والمسرح الغنائي الرحباني" لنزار مروة، و"في رحاب الرحابنة" لهنري زغيب. آخر الاصدارات بعنوان "الظاهرة الرحبانية مسيرة ونهضة" للصحافي هاشم قاسم.

انطلاقا من ذلك، قد لا يضيف اي اصدار اضاءة جديدة على ارث الرحابنة وتركتهم. الا ان كتاب "فيروز سفيرة المحبة" ("دار المصور العربي") للباحث الاردني زياد جمال حداد، لا يدعي هذه المهمة ولا هذه الطموحات. قالها المؤلف في المقدمة بأن عمله "تحليلي لمجموعة من العوامل التي عملت مع بعضها، فنتجت عنها حضارة جديدة اسمها فيروز والرحابنة".

اهمية الكتاب انه يحمل نظرة مؤلف عربي، اي نظرة تمتلك مسافة مع لبنان. الكتاب في اختصار هدية مفعمة بالحب والجميل لصاحبة الصوت الملائكي التي لا تحلو قهوة الصباح من دونه. مع ذلك، انه اول كتاب يحمل فيروز عنوانه الاوحد، مسقطا الاخوين رحباني من الواجهة، ولو ان صفحاته يحتلها الاخوان، على اعتبار انه يستحيل فصل نتاجهما عن الصوت الذي حمله، وساهم في انتشاره في ارجاء المعمورة.

اذا، الكتاب او لنسمه قصيدة الحب هذه في صوت كبر عليه الكاتب، وادمنه حتى شكل وجدانه... ليس دراسة، ولا بحثا شاملا يقارب المسألة الرحبانية من مختلف الزوايا بل اقتفاء للاثر الذي تركه صوت فيروز في وجدان المؤلف. رصد تاريخي ونقدي يضع تحت المجهر جوانب محددة من نتاج فيروز ومسيرتها. هكذا، قسم الكتاب الى ثمانية فصول اضاءت على طفولة فيروز، ثم عاصي ومنصور، فزياد الرحباني المسؤول عن الولادة الثانية لفيروز. كما خصص الباحث فصلا عن فيروز والاخرين الذين تعاملت معهم لحنا وكلمة، وفصلا عن فيروز والقمر الذي كان رفيق رحلتها. كذلك، توقف عند فيروز والزمن، وفيروز والمحبة كما تبدت في اغنياتها ويشكل هذا الفصل جوهر الكتاب. وانهى الاخير بدراسة الاغنيات الدينية التي قدمتها فيروز. وقد استند المؤلف في عمله الى مقابلات صحافية اجرتها فيروز وعاصي ومنصور وزياد، وكتب واصدارات عن الاخوين رحباني.

في المقدمة، يعلل المؤلف اختياره قائلا: "خلال الازمة اللبنانية عام 1975 حتى عام 1990، انقسمت بيروت الى قسمين: شرقية وغربية، ووصل في ذلك الوقت عدد التنظيمات السياسية على الساحة اللبنانية الى اكثر من مئة تنظيم. عجزت هذه التنظيمات بافكارها واشخاصها عن تحقيق وحدة بيروت. لكن بصوت فيروز بقيت بيروت موحدة، وكان صوتها مثل الاوكسيجين الذي يزود الرئتين بيروت الشرقية والغربية، فاستمرت الحياة بشخص واحد. فيروز وحدها كانت تتنقل بين فوهات بنادق الطرفين على الخط الفاصل، ولا تجد هذه البنادق سوى الانحناء اجلالا واحتراما لهذه السيدة العظيمة".

لكن نهاد حداد (1935) المولودة في كنف عائلة متواضعة الحال في منطقة زقاق البلاط، لم تكن تعرف انها منذورة لشيء كبير، لمهمة اسمى هي تشكيل هوية ثقافية وفنية وعاطفية لبلد صغير على خارطة المنطقة. يكتب شقيقها جوزف وديع حداد عن الوضع الاقتصادي للعائلة، قائلا: "مرحلة شبابنا كانت مليئة بالالم والفقر، لكننا نشأنا على الكرامة وعزة النفس". مع ذلك، زرعت والدتهم ليزا البستاني في انفس اولادها القناعة والمحبة حتى رحيلها المبكر عن 45 عاما في سنة 1961. كانت فيروز ثمرة تلك التعليمات: شابة خجولة متواضعة محبة متفانية كريمة بحسب اقوال شقيقها. اما صوتها، الذي كان يزعج جارهم المتعطش الى النوم في الظهيرة، فقد كان الجوهرة المخبأة التي ستنتشل العائلة من بؤس الحال. طبعا، لا تنفصل نشأة فيروز عن المناخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العام الذي ساد حقبة الاربعينات. فقد كانت الحرب العالمية تضع اوزارها، مخلفة ملايين القتلى والفقر والجوع والمرض في اصقاع الارض، بما فيها المنطقة العربية. لكن قلما اهتمت نهاد بما يحدث خارج حافة الشباك الذي كانت تتكئ عليه، لتسترق السمع الى تلك الاصوات الطالعة من راديو الجيران: اغنيات لعمالقة الطرب العربي بمن فيهم اسمهان، وليلى مراد، وفريد الاطرش حفظت اغنياتهم وراحت ترددها باتقان. لم تكن تتخيل انه بعد سنوات، ستحتل مكانها في نادي العمالقة هذا، بل جل طموحها كان ان تصبح معلمة مدرسة".

الا ان القدر كانت له كلمة اخرى. في الـ11 من عمرها، كان الملحن المعروف محمد فليفل احد مؤسسي المعهد الموسيقي الوطني في لبنان، يبحث عن مواهب صوتية جميلة بهدف تأسيس فرقة كورال لبرنامج يتم اعداده لمناسبة رسمية. في اثناء زيارته مدرسة فيروز عام 1946، سيقع على الاكتشاف الاروع. انضمت فيروز الى فرقته من دون علم والدها وبتواطؤ مع اخيها جوزف. على مدى اربع سنوات، تعلمت اصول الغناء في المعهد، كما التجويد القرآني. وفي الاذاعة اللبنانية، سيكون الملحن حليم الرومي مكتشفها الثاني الذي طلب منها تغيير اسمها ليصبح فيروز ويمنحها اغنياتها الاولى مثل "تركت قلبي وطاوعت حبك" (تتضارب المعلومات في شأن صاحب الكلمات، فهناك مراجع تحيل الى ميخائيل عودة واخرى الى ميشال عوض - 1959). استمر الرومي في تقديم الاغنيات لفيروز الى ان اوكل مهمة توجيهها الى عاصي الرحباني عام 1950. ستكون اغنية "عتاب" (الحانه وكلماته - 1952) البطاقة الحقيقية للدخول الى عالم الشهرة، لتبدأ الاسطورة كتابة حكايتها تحت توقيع "الاخوين رحباني".

باقي القصة نعرفها كلنا، دمشق، بعلبك، باريس، الشهرة... اعتلت فيروز خشبات العالم من شرقه الى غربه، غنت الوطن، وعناصر الطبيعة، والحب، والفقدان، والانتماء، والهجران، والفرح، والمدن...

يفرد المؤلف هنا مساحة مفصلة عن علاقتها بالقمر الذي استحال في اغنياتها "كائنا حيا، وصديقا وفيا، هو الذي يرصد ايامنا كما قال جبران (وسع البدر وللبدر عيون ترصد الايام)، وشاهدا صامتا على عثرات المحبين". حتى وصفت فيروز بـ"جارة القمر"، هي التي تربطها علاقة قديمة بالقمر وغنت له "يا قمر انا واياك صحبة من صغرنا... حبينا قمرنا وعشنا انا واياك يا قمر".

الا ان لـ"فيروز والمحبة" القسط الاكبر من المساحة في الكتاب. في هذا الفصل الذي اعطى الاصدار عنوانه، يتوقف المؤلف عند انواع الحب الذي غنته فيروز. بعد استعراض اقوال الفلاسفة والشعراء الكبار في الحب، يتوقف عند فيروز التي بنت حاجزا رصينا بين الحب الافلاطوني وذاك الشهواني، اذ "لا توجد كلمة او حتى حرف في كل اغاني فيروز يشير الى الشهوة، والمسحة الروحية في كلمات اغانيها تقتل تلك الشهوة، وتحيي الشعور النبيل عند المرء، فغنت الحب الطاهر، الرقيق، النقي والشفاف". وان تطرقت الى الحب الحسي، فانها تفعل ذلك موارِبة بنوع من البوح الخفر والغمز غير المباشر مثل اغنية "يا ريت" (كلمات والحان الاخوين رحباني - 1963) التي تقول فيها:

يا ريت انت و انا بالبيت
شي بيت ابعد بيت
ممحي ورا حدود العتم والريح
والتلج نازل بالدني تجريح
يضيع طريقك ما تعود تفل وتضل حدي تضل
ويزهر ويدبل الف موسم فل
وتضل حدي تضل حدي تضل
وما يضل بالقنديل نقطة زيت.



غلاف الكتاب.



ليس دراسة عن المسألة الرحبانية بل اقتفاء اثر صوت فيروز

لا كلمة في كل اغنيات فيروز تنطوي على الشهوة، والمسحة الروحية تقتل تلك الشهوة



هذه الدعوة الى الحب الجسدي والبوح باختلاجات حسية، قدمتها ضمن انبل وارقى صيغة، بكلمات ملئها التورية والمجاز. غنت فيروز الحب من زوايا كثيرة، واماكن مختلفة، كأننا بصوتها اختصرت كل تجاربنا الفردية مع هذا الاحساس. ورغم ما قيل عن علاقاتها المتوترة بزوجها عاصي، وحالة الجفاء والهجران التي سادت في السنوات الاخيرة من حياة عاصي، الا ان الباحث يؤكد على ان الحب الحقيقي جمع الاثنين حتى النهاية. اذ يستشهد بما قاله المسرحي والشاعر الراحل عصام محفوظ الذي كان وثيق الصلة بالثنائي وشاهدا على التمزق الذي اعترى العلاقة. وقد اورد في كتابه "ماذا يبقى منهم للتاريخ" بأن ما حصل مع الاثنين يشبه مأساة المسرحية الاغريقية "بيغماليون" عن "علاقة الفنان المبدع بنموذجه الفني الذي ابدعه. هذه الاسطورة تتحدث عن ملك نحت تمثالا لامرأة جميلة، وعشق هذا التمثال، فطلب من الآلهة ان تبث فيه الحياة، واستجابت الآلهة، وتزوج الملك تمثاله".

بالنسبة الى محفوظ، بدأت فيروز تتمرد على "خالقها" الفني، ما احدث هذا التوتر والقطيعة في العلاقة، لكن ذلك - لحسن الحظ - حصل متأخرا بعدما كان الارث الرحباني الفني قد اكتمل، والاسطورة استراحت في مقعدها الوثير في التاريخ. طبعا، كان لهذه العلاقة المتوترة اثر بالغ على الابن البكر، زياد الرحباني، الذي ستولد فيروز مرة جديدة على يديه.

مع ذلك، كتاب "فيروز سفيرة المحبة" يبقى بادرة عرفان بفضل هذا الصوت الذي لون صباحاتنا ومساءاتنا، وادخل الطمانينة الى قلوبنا. فيروز التي اختصرت لبنان بصوتها، فقال عنها الكاتب الفرنسي المتخصص في سير العظماء ورجال التاريخ بانها "شديدة الرقة، وغامضة، وصلبة، ولذيذة لمن حظي بثقتها، تتعامل مع شهرتها باستخفاف، وترفض اي تعامل سياسي او تجاري فيها. فيروز هي لبنان، وجغرافيته، وحكايته...".